أوضاع ليبيا مابين الاحتلال الأسباني والنجدة العثمانية ١٥١٠ -١٥٥١م

د إبراهيم علاء الدين

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة تشرين

أوضاع ليبيا مابين الاحتلال الأسباني والنجدة العثمانية ١٥١٠ - ١٥٥١م

د إبراهيم علاء الدين
قسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة تشرين

تمهيد تاريخي:

بعد أن سقطت طرابلس في أيدي القوات الأسبانية في ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م، وصفها قائد الحملة الكونت (بدرو دي نافارو) من خلال الرسالة التاريخية التي بعث بها إلى نائب الملك بصقلية، ينقل فيها خبر احتلال المدينة بقوله: ((سيدي إن هذه المدينة لهي أكبر في واقعها مما كنت أتصور، ورغم أن الذين يشيدون بها ويطرونها يتحدثون عنها حديثاً حسناً إلاّ أني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة سواء فيما يتصل بتحصيناتها أو نظافتها حتى لتبدو مدينة إمبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص))[(١)]، ولقد كانت هذه الشهادة التي سجلها بدرو دي نافارو بعد احتلاله لمدينة طرابلس دلالة على المكانة التي كانت تتمتع بها بين المواقع الساحلية للشمال الإفريقي، ويقدم لنا أيضاً أحد رجال الحملة الأسبانية وهو باتستينو دي تونيس Batistino de Tonis وصفاً لمدينة طرابلس في تلك الفترة بقوله: ((تقع مدينة طرابلس

في سهل وهي مربعة الشكل، ويحيط بها سور يمتد أكثر من ميـل، ولهـا سـوران مزدوجان، تَحف بهما خنادق منخفضة ضيقة، السور الأول صغير ومنخفض وهو ما عبر عنه الرحالة التجاني بكل دقة(٢)، أما السور الثاني فهو مرتفـع جـداً وفخامتـه متناسبة مع الأبراج، وهي ذات مواقع دفاعية ضخمة ومحاطة بـالبحر مـن جهاتهـا الثلاث، ولها ميناء ممتاز قادر على إيواء أربعمائة سفينة، ومن أجل ذلك كان ضـياع المدينة مبعثاً للأسى والأسف ويقال: إن سكانها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب وبعض اليهود))(٣).

ونستخلص من هذه الأوصاف الأسبانية لمدينة طرابلس في تلك الفترة الوقائع المحددة التالية: إن مدينة طرابلس كانت مدينة مزدهرة شاعت لها سمعة الرفاهية والرخاء لدى الأوربيين وهو ما يعكس بصورة واضحة تلك الفرحة التي عمت الأوساط المـسيحية لوقوع هذه المدينة في قبضة الأسبان، وما كان لها من صدى كبير فـي المظـاهرات التي نظمت في بعض مدن إيطاليا وتبادل التهاني بين مرشـد رودس ودوق البندقيـة وبين شارل الخامس الأسباني، الأمر الذي يؤكد الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها مدينة طرابلس، كما أن مدينة طرابلس كانت في ذلك الوقـت مدينـة تجارية يتردد عليها التجار العرب وتجار الشمال الإفريقي إلـى جانـب العثمـانيين والجنويين والصقليين والمالطيين، أضف إلى ذلك أنها كانت تملك ميناء قادراً على أن يستوعب أربعمائة قطعة بحرية من مختلف الأحجام، ذلك كله يؤكد الأهمية البحريـة والصلات التجارية التي قامت بينها وبين الموانئ العربية في الشرق والغرب والموانئ الأوروبية في الشمال. ولابد أن نشير هنا إلى أن الاحتلال الأسباني قد اقتصر علـى مدينة طرابلس وقلعتها، ولم يستطع أن يتعدى إلى أبعد من ذلك، وإلى الشرق كانـت مدينة تاجوراء* التي شكلت قاعدة حربية هامة تتجمع فيهـا وتنطلـق منهـا حركـة المقاومة ضد الوجود الأسباني، ولقد تأثرت مدينة طرابلس من خلال هـذا الاحـتلال الذي حد من نشاطها وقضى على حركتها التجارية وقطع صلاتها بين الشرق والغرب

والبر والبحر؛ إذ عاشت الحامية الأسبانية طوال هذه الفترة في وضع حربي قلق، متعرضة باستمرار لهجمات الأهالي الذين كانوا يبذلون الجهود لاسترداد المدينة وطرد المحتلين الأسبان منها، كما أن الأسبان لم يكونوا مهتمين بالمدينة وتطورها خلال هذه الفترة بقدر انشغالهم بالدفاع عن أنفسهم من هجمات الثوار، فصرفوا جل الوقت في الأعمال الدفاعية وفي تحصين قلاع المدينة وأسوارها القديمة[٤]، ويفسر ازدهار طرابلس على مدى القرون كونها نقطة إعادة تصدير في طرق التجارة التي تصل الشرق بالغرب، فإليها ينتهي طريق القوافل الذي يخترق الصحراء ويمتد عبر مناطق غات* مرزق* ويتواصل بعد ذلك جنوباً إلى بحيرة تشاد، فالمصدر الرئيس الذي هو أساس وجود سكان المدينة كان التجارة عبر الصحراء والتجارة بين الشرق والغرب، فالقوافل والسفن المتوالية كانت تصل إليها بمختلف البضائع، بينما في سنوات السيطرة الأسبانية تقلص دور طرابلس وأهميتها في التجارة[٥]، حيث عمل الأسبان على ضمان احتكار النشاط التجاري، بفرض الضرائب الباهظة على البضائع المنافسة الواردة من موانئ أخرى، وأخذ الوضع التجاري ينهار بسرعة، وقل عدد السفن الوافدة إلى ميناء طرابلس، وتحول القسم الأكبر إلى الموانئ الفرعية الأخرى، وزادت من هذه الأزمة هجرة السكان وعزلة المدينة، حيث كان الثوار يمنعون أية حركة منتظمة تتجاوز أسوارها للاتصال بالدواخل والمراكز الساحلية الأخرى، بينما انتعشت حركة تجارية في الموانئ الصغيرة على الساحل الطرابلسي والبعيدة عن السيطرة الأسبانية، ولم تعد مراكب البندقية تجد من المناسب لها التوقف في ميناء طرابلس، وتحولت إلى الرسو في ميناء مصراته ويسمونها (Mazerata).[٦]

وهكذا انهارت مدينة طرابلس في ظل الاحتلال الأسباني، وضعف مركزها التجاري، وهجرها سكانها إلى الضواحي، كما قُتل عدد منهم وأُسر البعض الآخر، مما يؤكد لنا الصورة المأساوية للمدينة، التقرير الذي قدمته البعثة الفنية التي أوفدتها هيئة فرسان مالطا للاطلاع على أحوال طرابلس، وتكوين فكرة عنها قبل اتخاذ الموقف النهائي من

عرض الإمبراطور شارل الخامس بالتنازل عن طرابلس لهم مع جزيرة مالطا، وقد تركز تقريرهم على أحوال المدينة والسور والميناء، فذكروا أن المدينة تقع في مكان صحي، ويحيط البحر بثلثيها، أم الثلث الباقي فيحيط به سور دائري طوله ٣٧٢٨ خطوة، وقد دمرت مسافة من السور تبلغ مائتي خطوة بقصد الاستفادة من موادها في تحصينات القلعة، أما الأسوار فيبلغ ارتفاعها قصبتين ونصف القصبة وأنها مهددة في أكثر من مكان بالانهيار والخراب، وقد جرت حمايتها بواسطة أسوار إضافية لا تصمد للمدفعية، وهي بلا أبراج وخنادقها ضيقة وليست عميقة، أما المنازل والمنشآت فقد لحقها الخراب والدمار نتيجة الهجوم الواقع عليها سنة ١٥١٠م، أما القلعة فهي تكاد تكون مربعة الشكل، وذات برجين يواجهان المدينة، وهي في حاجة إلى الترميم والإصلاح، سواء فيما يتصل بالأساسيات التي تآكلت بتأثير البحر، أو بما يتصل بالأسوار المكونة من تربة رملية، ويعتقد أنّها لن تصمد للمدفعية القوية، وإن السكان قد انخفضوا إلى ستين عائلة عربية ويتمثل الدخل في نسبة العشرة بالمائة التي تجبيها الجمارك على البضائع والرقيق.(٧)

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأسبانيين ومنذ استيلائهم على مدينة طرابلس قد عملوا على طرد جميع السكان الطرابلسيين وأحلوا محلهم أكبر عدد ممكن من المسيحيين، والدليل على ذلك ما قام به نائب الملك بصقلية (هوجو دي مونكادا) في ١٦ تشرين الأول ١٥١١م، حيث وزع منشوراً أعلن فيه ((أنه سوف يقدم لكل من يرغب في السفر والسكنى في طرابلس (المساكن الملائمة) وتخصص له الأراضي المناسبة للزراعة ويعفى من كل ضريبة أو رسوم لمدة عشر سنوات، كما يبرأ من كل تهمة مدنية أو جنائية عدا الجرائم الخطيرة))(٨).

وعلى الرغم من كل ذلك فقد فشلت المخططات الأسبانية، ولم تتحول مدينة طرابلس إلى بلد مسيحي كما كانوا يتوقعون، كما فشلت في تثبيت دعائم حكمهم باستعمال جميع

الوسائل ومنها الاتصال بزعماء القبائل في محاولة لكسب تأييدهم، مما اضطرهم إلى استعمال العنف في كل محاولة لتغيير ملامح الحياة في طرابلس.(٩)

وقد تغيرت السياسة الأسبانية تجاه طرابلس بسبب الحروب التي خاضتها أسبانيا في القارة الأوروبية، مما ضاعف من مقاومة الشعب الليبي ومحاصرته لمدينة طرابلس، وتعددت فرق المقاومة حيث اتخذت من مدينة (تاجوراء) قاعدة انطلقت منها حركة المقاومة ضد المستعمر الأسباني.

ولعل اختيار مدينة تاجوراء بالذات كان بسبب قربها من مدينة طرابلس، ثم اندلعت المقاومة في الجبل الغربي ومسلاته، وأخذوا يشنون الهجمات على القوات الأسبانية بالاشتراك مع بعض القوات التونسية (١٠).

ولعل السلطان (أبا عبد الله محمد بن الحسن الحفصي) حاكم تونس قد أدرك أن الخطر سيشمل كل الساحل الإفريقي مما اضطره إلى إرسال بعض القوات التونسية، علاوة على بعض المؤن والعتاد، وبسبب المقاومة التي أبداها الشعب الليبي، فقد فشلت القوات الأسبانية في مد نفوذها خارج مدينة طرابلس (١١).

وفي شباط سنة ١٥١١م تمكنت المقاومة الليبية من مهاجمة مدينة طرابلس، بعد أن استمر حصارهم لها سبعة أشهر وكادوا يستولون على الحصن لولا ذلك اللغم الذي استعملته القوات الأسبانية والذي راح ضحيته مئات المهاجمين وعدد كبير من الأسبان، ويذكر (كوستانزيو برنيا) أن اللغم كان بمشورة من القائد (بدرو دي نافارو) بعد رجوعه إلى طرابلس وأنه قد مات في هذا الحصار (١٢).

ربما أراد (برنيا) أن يصور (بدرو دي نافارو) وكأنه مات ميتة الأبطال في ساحة المعركة، إلاّ أن بعض المصادر الأخرى تشير إلى أن (بدرو دي نافارو) لم يعد إلى طرابلس بعد هزيمته في (جربة) و(قرقنة) وأنه وقع أسيراً في يد الفرنسيين، ثم أطلق

سراحه (فرانشيسكو الأول) وعمل في خدمة الفرنسيين ضد الأسبان حتى تم القبض عليه وأعدم سنة ١٥٢٩م في (كاستيل دل أووو) في نابولي.[١٣]

على الرغم من أن الحملة المشتركة التي قامت بها المقاومة الليبية بالاشتراك مع القوات التونسية ضد الأسبان في طرابلس قد فشلت في استرداد المدينة، إلاّ أنها استطاعت أن تحقق نتائج كبيرة وهامة، فقد تركت أثراً قوياً في نفوس سكان صقلية المغامرين بانصرافهم عن الاستجابة للنداء الذي أصدره نائب ملك صقلية دون هوجو دي مونكادا Donhugo de mocada، في بلدة كاتانيا يوم ١٦ تشرين الأول سنة ١٥١١م إلى الذين يرغبون في سكن طرابلس بأنهم سيمنحون مساكن ملائمة وأراض يزرعونها وعفواً من الضرائب والأتاوات لمدة عشر سنوات والعفو الناجز عن أية جناية مدنية أو جريمة قد ارتكبوها، ولهذا السبب فإن الحكام الأسبان في طرابلس قد فشلوا في استقدام مستوطنين مسيحيين يستقرون في طرابلس ويعمرونها، ولذلك فإن المدينة ظلت حتى حوالي سنة ١٥١٨م خالية من المستوطنين فيما عدا أفراد الحامية التي ركزت جهدها في الدفاع عن الميناء والقلعة، وفي هذا الوضع ظل أهالي طرابلس يشنون الغارات الخاطفة على المدينة وحاميتها، ويفرضون عليها المقاطعة البرية[١٤]، وبسبب هذه المقاومة عاشت الموانئ المحتلة معزولة غريبة، وقد قاسى الجنود المحتلون الويلات حتى كانوا يفضلون الأسر على حياتهم داخل الموانئ المسورة، وكانت كل حامية تعتمد على تحصيناتها وعلى نجدة الموانئ المحتلة القريبة وتستقل بقدر الإمكان في تموين نفسها عن أسبانيا، وعلى هذا النحو كانت الموانئ الطرابلسية المحتلة شبه محاصرة من قبل الثوار وهذا مثل فريد في المقاومة.[١٥]

كما أن تلك المقاومة العنيفة التي بذلها سكان المدينة قد دفعت الأسبان إلى تغيير سياستهم وخصوصاً بعد أن ظهر الأسطول العثماني بقيادة (خير الدين بارباروسا) والذي تمكن من الوصول إلى طرابلس سنة ١٥١٢م، وأصبح يهدد القوات الأسبانية، فكان له رد فعل كبير فيما كان يبديه الأسبان من رغبة لامتلاك طرابلس [١٦].

ومن العوامل الأساسية لتغيير سياسة أسبانيا تجاه مدينة طرابلس: إلحاقها إدارياً بصقلية، ففي سنة ١٥١٣م تنازل ملك أسبانيا عن إدارة طرابلس إلى نائب الملك في صقلية، والذي بدوره أخذ يدعم نفوذه السياسي بشتى الوسائل منها: تشجيع المسيحيين للهجرة إلى طرابلس، وإحياء النشاط التجاري والصناعي الذي فقدته البلاد بسبب إجلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان، وزيادة في الترغيب فقد وعدهم بالعفو عن أصحاب الجرائم منهم[١٧]، ورغم ما يدعيه البعض من أن مدينة طرابلس قد ازدهرت أحوالها[١٨]، فإن الكلام لا يحمل قدراً من الحقيقة، ووفقاً لتتبع الأحداث التاريخية لمدينة طرابلس فلا توجد أية إشارة إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أو انتعاش الحياة اليومية.

ونتيجة لذلك فقد ضاق الحال بالأسبان، وفشلت سياسة العنف التي كانوا يستعملونها في داخل المدينة وخارجها ولم يبد من الطرابلسيين أي قصور في الدفاع عن بلادهم[١٩].

ولعل الأسبان قد قدروا خطورة الموقف الناجم عن استعمال العنف، مما دفعهم إلى أن يغيروا من سياستهم في محاولة لتهدئة النفوس الثائرة، لذا فقد أطلقوا سراح الشيخ (عبدالله بن شرف) حاكم المدينة، وتشير العديد من الرسائل المتبادلة بين (شارل الخامس) ونائبه في طرابلس وجميعها تتضمن إطلاق سراح الشيخ عبدالله بهدف تهدئة الرأي العام، ومحاولة استخدام أسلوب اللين والمراوغة بدلاً من العنف والقسوة[٢٠]، بالتقرب إلى سكان المدينة وإظهار حسن النية تجاههم، وفي هذا الإطار قاموا بإصدار قرار العفو عن الشيخ عبدالله بن شرف، وأطلقوا سراحه حوالي سنة ١٥٢١م، ليستغلوا نفوذه في إخضاع الطرابلسيين[٢١]، وقد ورد في رسالة من باليرمو بتاريخ ١٢ كانون الثاني سنة ١٥٢٣م ما يشير إلى وصوله إلى طرابلس وتنصيبه حاكماً على ٥٠٠ أسرة من السكان المغاربة الذين عادوا إلى المدينة بعد عودته ولا يزالون يفدون، وأنه صرف لهم أخشاباً ومواد أخرى للبناء، والأمل كبير في أن تعود بتأثير الشيخ عبدالله بن شرف (الولي الصالح) المحبوب من قبل السكان المدينة إلى

عهدها السابق من الازدهار والرخاء، إلاّ أن الشيخ عبدا بن شرف الذي وثق فيه الأسبان وأطلقوا سراحه قد فر بمجرد وصوله إلى مدينة طرابلس وانضم إلى المجاهدين بتاجوراء[٢٢]، وتخوف الأسبان أن يقوم الشيخ عبدا بعد فراره بتنظيم المقاومة في تاجوراء على نحو أفضل وأكثر فعالية[٢٣]، كما توقعوا في الوقت نفسه أن يظهر الأسطول العثماني فجأة على سواحل مدينة طرابلس[٢٤]، وحملتهم هذه المخاوف على حصر جبهة الدفاع في الميناء والقلعة التي حصنوها بأسوار قوية ومدفعية ضخمة[٢٥]، أي أنهم اهتموا بتحصين القلعة التي يقيمون فيها ويعتمدون عليها في حمايتهم من ثورات الأهالي، فانصبت إصلاحاتهم على الحصنين اللذين في جانب المدينة، الأول: الحصن الذي أسموه حصن القديس جورج، أما الحصن الثاني الذي اهتم الأسبان بإصلاحه فهو ذلك الحصن الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي للقلعة، وبمناسبة احتلال الأسبان لمدينة طرابلس في ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م والذي صادف يوم عيد القديس يعقوب، فقد أطلقوا اسم حصن القديس يعقوب على الحصن الواقع في الطرف الشمالي الشرقي للقلعة، وقد استخدم الأسبان في ترميم وإصلاح تلك الحصون حجارة أخذت من أسوار المدينة، التي لم يرممها الأسبان بل إنهم قد حطموا أجزاء منها لاستغلال حجارتها في ترميم القلعة[٢٦]، وكان يحيط بالأسوار خندق عريض محفور في الجزء الذي لم يكن البحر يصل فيه قاعدة القلعة، ولم يكن أحد ليستطيع أن يلجأ إلى القلعة إلا بواسطة جسر متحرك [٢٧].

وعلى الرغم من كل تلك الإجراءات والتحصينات، إلا أن انشغال الإمبراطور شارل الخامس بعد أن صار إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة بحروبه ضد فرنسا في إيطاليا، كان سبباً في تنازله عن جزيرة مالطا وقوزو ومعهما طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا؛ رغبة منه في التفرغ لتلك الحروب والاستفادة من مجهود المنظمة من ناحية ثانية [٢٨].

ثالثاً – ظهور البحارة العثمانيين في مناطق المغرب العربي (شمال إفريقيا):

تزامن الاحتلال الأسباني للساحل الشمالي لبلاد المغرب العربي بين سنتي ١٥٠٥-١٥١١م مع ظهور عدد من البحارة العثمانيين، الأمر الذي أدى إلى تزايد النشاط البحري ضدهم، حيث اتخذ هؤلاء الرجال من الشواطئ المغربية منطلقاً لهجماتهم على المراكب المسيحية، ويعترف عدد كبير من المؤرخين من أمثال: روجي كواندرو[٢٩] وبروديل[٣٠] بأن طرد الموريسكيين* من الأندلس كان سبباً أساسياً في تزايد الجهاد البحري.

في البداية لم يكن في مقدور المجاهدين العثمانيين التصدي مباشرة للأساطيل الأسبانية والبرتغالية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وإنقاذ إخوانهم الموريسكيين من خطر الفناء والتنصير، وهكذا تبلورت فكرة الجهاد البحري والانتقام من الأسبان الذين طردوا المسلمين من الأندلس ويعملون على طردهم من إفريقيا أيضاً.

واعتبرت عملية احتلال مدينة طرابلس سنة ١٥١٠م بداية ناجحة لتحقيق ذلك الحلم، فقد ابتهج النصارى كثيراً لهذا النصر وعمت الاحتفالات مختلف العواصم الأوروبية، حيث كان البابا يرتل صلوات الشكر للسيد المسيح وهو يشاهد الآلاف من الأسرى الطرابلسيين الذين أُخذوا بعد هذه العملية مباشرة ليتم بيعهم في أكبر أسواق النخاسة بالفورنو*، إلى حد أن أسعارهم قد انخفضت وأصبح بإمكان السفن المسيحية تغيير المجدفين بدون صعوبة.[٣١]

لقد تميز المجاهدون العثمانيون بالشجاعة والإقدام والخبرة الواسعة في ركوب البحر، الأمر الذي ساهم في تنظيم البحرية المغربية والرفع من مستواها في تلك الفترة بينما يصفها المؤرخ (روجي كواندرو) بالفترة المنظمة (للقرصنة البربرية).[٣٢]

والحقيقة أنه لا يمكن مجاراة المؤرخين الغربيين في وصفهم للمجاهدين المغاربة عموماً بالقراصنة، وذلك بسبب الحرب الدائمة والمستمرة بين المسلمين والنصارى.

ولكن المؤرخين المسلمين يطلقون اسم (غزاة البحر) على البحارة المورسكيين والعثمانيين والمغاربة، حيث استخدم سلاطين آل عثمان لقب (الغازي) منذ جدهم الثاني (أورخان)[٣٣]، بينما استخدم المؤرخون المغاربة لفظ (المراكب الجهادية) على السفن القائمة بالغزو ومن بينهم على سبيل المثال: ابن غلبون الطرابلسي[٣٤]، وابن عبد العزيز التونسي [٣٥].

وعلى أية حال فإن وصول المجاهدين العثمانيين إلى السواحل المغربية قد ساعد في التصدي والوقوف في وجه المسيحيين الأسبان وقد اشتهر من بينهم.

١- عروج بربروس (١٤٧٣-١٥١٨)[٣٦]:

عروج: هو الابن الأكبر ليعقوب بن يوسف، أحد المجاهدين العثمانيين الذين اتخذوا من جزيرة (مدللي) ببحر إيجه مقراً لإقامته هو وأسرته، وأمه سيدة أندلسية[٣٧] كان أول اتصال لعروج بربروس وأخيه خير الدين بالسواحل المغربية في بداية القرن السادس عشر، حيث حصلوا في سنة ١٥١٠م على تسهيلات بحرية في الموانئ الحفصية (التونسية) مقابل حصول سلطانها الحفصي (أبي عبد ا محمد) على خُمس الغنائم الحاصل عليها من غزواتهم ضد الأوروبيين [٣٨].

ونتيجة لجهودهم في هذا المجال منحهم حاكم تونس الحفصي جزيرة (جربة) لتكون قاعدة لنشاطهم ضد الأساطيل الأوروبية، ويبدو أن السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) كان مدركاً للدور المهم الذي يقوم به عروج وأخوه خير الدين في هذه المنطقة، ولذا لم يتأخر عن مد يد العون والمساعدة لهم، بعد أن تعرض أسطولهم البحري لخسارة سنة ١٥١٥م على يد الأسبان، حيث أرسل لهم أربع عشرة قطعة بحرية مزودة بالرجال والعتاد[٣٩]، وبذلك استطاعوا مواصلة جهادهم متخذين من الجزائر قاعدة لنشاطهم المتزايد يوماً بعد يوم، معتمدين على خفة الحركة وحرية المناورة حيث مكنتهم الموانئ المغربية الممتدة على طول الساحل من تاجوراء في

الشرق حتى مراكش في الغرب من تشديد الحصار على المدن المختلفة كطرابلس والجزائر وبجاية ووهران وقطع إمداداتها التي كانت ترسل من أسبانيا من حين إلى آخر، بالإضافة إلى تنظيم حركة المقاومة الشعبية في هذه المراكز القريبة من الوجود الأسباني، الأمر الذي جعلهم يحاولون القضاء عليه بمختلف الطرق، وبالفعل استطاعوا محاصرته في تلمسان الجزائرية التي قُدر لعروج أن يموت بها يوم ١ أيار ١٥١٨م ونقل جثمانه إلى العاصمة الجزائرية حيث دفن هناك (٤٠).

٢- خير الدين بربروس (١٤٧٦ - ١٥٤٦):

بعد وفاة عروج تولى خير الدين قيادة المجاهدين في المغرب العربي سنة ١٥١٨م وهي السنة التي آلت فيها الجزائر إلى الدولة العثمانية وأصبح خير الدين يحكمها باسم السلطان برتبة (بكلربك)*، وأمده السلطان بالرجال والمراكب ومنح أتباعه حقوق الانكشارية وامتيازاتهم المعمول بها في الدولة العثمانية (٤١).

وبذلك استطاع خير الدين مواصلة جهاده ضد الوجود الأسباني وتقديم يد العون والمساعدة لأولئك المهاجرين الأندلسيين في صراعهم ضد الأوربيين، وقد حقّق عدة انتصارات في المغرب الأوسط، استطاع من خلالها الحصول على المال اللازم لمواصلة الجهاد، تلك الأموال التي كان يدفعها في السابق بعض حكام المقاطعات الجزائرية إلى الأسبان، وعند هزيمتهم تحولت تلك الأموال إلى خير الدين، كما هو الحال مع مولاي (عبد ا أبو جيحون) حاكم مقاطعة تلمسان (٤٢).

وهكذا لم تأت سنة ١٥٣١م إلاّ وأصبح خير الدين سيد البحر المتوسط في الجزء الغربي منه على الأقل، وأصبح رجاله الأشداء ذوو الخبرة العالية والتنظيم الدقيق يثيرون الرعب والخوف، ليس بين البحارة الأسبان فقط، بل بين سكان جنوب أوروبا عموماً، وكان من أهم تلك النتائج، تعاظم شهرة خير الدين البحرية وبخاصة في المنطقة الممتدة من الحوض الغربي من البحر المتوسط وحتى المحيط الأطلسي، إلى

درجة أن السلطان العثماني (سليمان القانوني) قد استدعاه ليتـولى قيـادة الأسـطول العثماني حتى يستطيع الوقوف في وجه (دوريا الجنوبي) الشهير الذي اختاره الملـك الأسباني (شارل الخامس) قائداً لبحريته، وقد وصف (روجي كواندرو) تـولي خيـر الدين هذا المنصب بقوله: ((وبعد أن سمي خير الدين من طرف الـسلطان العثمـاني الأميرال الكبير لجميع الأساطيل العثمانية استحق لقب كارثـة المـسيحية وصـارت انتصاراته غير قابلة للإحصاء))(٤٣).

ويبدو أن خير الدين لم يستمر طويلاً في هذا المنصب حيث اختاره السلطان سـليمان سفيراً له في مرسيليا* لدى ملك فرنسا فرنسوا الأول(٤٤)، حيث استمر في منصبه حتى وفاته سنة ١٥٤٦ ودفن في الأستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

رابعاً – طرابلس تحت سـيطرة فرسـان القـديس يوحنـا (١٥٣٠م-١٥٥١م):

لاشك أن تنازل الملك (شارل الخامس) عن جزيرتي (مالطا وقوزو) ومعهما طرابلس لفرسان القديس يوحنا*، كان له أبعاد سياسـية خطيـرة، فقـد رأى مـن مـصلحة الإمبراطورية الرومانية المقدسة تسليم جزيرتي مالطا وقوزو وطرابلس لهم، للاستفادة من مجهود هذه المنظمة وبالتالي التخلص من طرابلس التي أصبحت تكلفهـم نفقـات باهظة من المال والرجال دون أي نتيجة مرجوة، كما أن وجود قوى بحرية لها وزنها في البحر المتوسط سيحمي مستعمراته في صقلية ونابلي (٤٥).

وما أن طلبت المنظمة من شارل الخامس في تشرين الأول ١٥٢٣م منحهم جزيرتـي مالطا وقوزو حتى استجاب لطلبهم، بشرط تولي مهمة الدفاع عـن طـرابلس إلاّ أن هؤلاء لم يبدوا ارتياحاً لهذا الشرط وأدركوا أنهم سوف يتعرضون لحرب طويلة مـع الطرابلسيين وهجوم جديد من قبل الأسطول العثماني الذي يتربص بهم وسـيطردون منها مثلما طردوا من رودس من قبل.

ولكن بعد اتفاق سري مع البابا طلب من شارل الخامس أن تتحمل الخزانة الأسبانية دفع المبلغ الذي كانت تتحمله لتغطية النفقات في شكل معونة سنوية للفرسان [٤٦].

وقبل الموافقة على توقيع وثيقة التسليم، شكل وفداً من ثمانية أشخاص لزيارة طرابلس وتقديم تقرير شامل عن موقع المدينة الاستراتيجي وتحصيناتها وعن الميناء والقلعة ومدى قدرة الفرسان على الاحتفاظ بهذه المدينة وعن النفقات المالية والعسكرية التي يمكن توفيرها في حالة قبول هذا العرض.

وقدم هذا الوفد تقريراً وافياً، ومن أهم ما جاء فيه: ((إن الأسوار التي تحيط بالمدينة لحمايتها مهددة بالانهيار، ولا يمكن لها التصدي للمدفعية في حالة الهجوم عليها، وهي بدون أبراج وخنادقها ضيقة، وليست عميقة، أما المنازل والمنشآت فمعظمها مدمرة نتيجة الهجوم الذي شنته القوات الأسبانية ضدها سنة ١٥١٠م، أما بالنسبة لقلعتها فهي تحتاج إلى الترميم والإصلاح، وإن القلعة والمدينة تتحكم فيها هضبة أو جبل صغير يقع إلى الجانب الجنوبي الشرقي، وأما الميناء فهو صغير وليس مضموناً تهدده الرياح الشرقية وتقيه بعض الجزر الصغيرة من الجهة الغربية، وإن السكان قد نقصوا إلى ستين عائلة عربية وهم يملكون ٢٥ حصاناً للدفاع عن المدينة))[٤٧].

وتم عرض هذا التقرير على مجلس المنظمة فترددوا في قبول هذا الشرط أول الأمر؛ لأنّه لم يكن في هذا التقرير ما يشجع على قبول مدينة طرابلس، الأمر الذي أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهلهم؛ لأنّه مقرون بمنح (مالطا وقوزو).

كما أن الوفد الذي زار طرابلس في سنة ١٥٢٤م، قد نصح المجلس بعدم قبول هذا الشرط ورأوا أن تخليهم عنه، معناه التخلي عن جزيرتي مالطا وقوزو، وبالتالي إضاعة هذه الفرصة التي أتيحت لهم، وقد حاولوا التأثير على الملك (شارل الخامس) إلاّ أنهم لم ينجحوا في ذلك، وفي النهاية أذعنوا للأمر الواقع وقبلوا بهذا العرض، وتم توقيع مرسوم التسليم في الرابع والعشرين من آذار سنة ١٥٣٠م، في (كاستل فرانكو

مينيتو) وقد ورد فيه ((أنه رغبة منا في تدعيم واستقرار الدير والمنظمة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس (يوحنا) واستناداً إلى رغبتنا في أن ينال المرشد الأكبر الجليل المبجل ورؤساء الهيئة وقادتها وفرسانها مقراً ثابتاً ومركزاً محدوداً وانطلاقاً من محبتنا والعطف الذي نحمله لهذه الهيئة، فقد قررنا عن طيب خاطر التنازل إلى المرشد الأكبر والمنظمة عن مقر دائم وثابت وأن مرسومنا هذا يعتبر ساري المفعول لجميع العهود القادمة بالنسبة إلينا وإلى ورثتنا وجميع خلفائنا في مملكتنا، نتنازل ونمنح بكامل الإرادة الحرة إلى المنظمة المعروفة باسم القديس (يوحنا الجرو سولو ميتانو) إقطاعاً نبيلاً حراً مشمولاً بالإعفاء، المدينة والقلعة والمواقع والجزر التابعة إلينا في طرابلس ومالطا وقوزو ومع جميع البقاع التابع لها إقراراً منهم بإقطاعنا عليهم أن يقدموا صقراً كل سنة عند الاحتفال بعيد جميع القديسين بيد نائب الملك))[٤٨].

ولعل موافقة الملك شارل الخامس لم تكن بدوافع دينية خالصة، وإنما يهدف إلى التخلص من مدينة طرابلس التي أصبحت تكلفه النفقات الباهظة من المال والرجال بسبب المقاومة الشعبية التي تعرض لها، ورغبة منه في إخضاع المنظمة لنفوذه فقد أشار إلى ذلك في نص المرسوم عندما طلب منهم أن يقدموا صقراً كل سنة عند الاحتفال بعيد القديسين، وهذا إشارة واضحة على خضوعهم له، بدلاً من إلزامهم بدفع مبالغ مالية كبيرة لا قدرة لهم على دفعها.

وما أن تسلم فرسان القديس يوحنا مدينة طرابلس في حزيران ١٥٣٠م حتى واجهوا مقاومة الأهالي لهم في كل المناطق، كما تعرضوا لخطر الأسطول العثماني المرابط في البحر المتوسط، بالإضافة إلى حاجتهم الملحة إلى الأموال الكثيرة لتعمير ما خربه الأسبان وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه.

وبمجرد أن استلم الأب (سنقويسا Sanguessa) إدارة طرابلس قرر أن يخضع المناطق القريبة لطرابلس مثل تاجوراء وسوق الجمعة وجنزور، فقد قام بعدة حملات صغيرة كان الهدف منها: نشر الخوف والرعب بين السكان في مدينة طرابلس وضواحيها وبأن له قوة عسكرية قادرة على قمع أي حركة أو ثورة ضدهم، وكذلك أن يفتح للمدينة باباً جديداً كان في أشد الحاجة إليه وهو الاتصال بالدواخل ومبادلة السلع والانتفاع بما تنتجه تلك القرى من حبوب وفواكه وخضروات وحيوانات(٤٩)، حيث استطاع أن يجبر أهالي جنزور أن يدفعوا له الضرائب المفروضة عليهم (٥٠).

استقرت المنظمة في مدينة طرابلس سنة ١٥٣٠م، وبدأ العمل بتحصين المدينة وزيادة قوتها الداخلية، فتم ترميم الأسوار وبناء القلاع الدفاعية، وتحمل الأهالي العبء الأكبر في عمليات البناء والترميم تحت سياط الجنود، وكان تصرفهم داخل المدينة يوحي بأن التغييرات التي تم إحداثها في معالم المدينة، تدل دلالة واضحة على أنهم مصممون على الاستقرار الدائم وجعل طرابلس مقراً دفاعياً لهم، والدليل على ذلك أنهم أطلقوا على البرجين اللذين يقعان في الطرف الشرقي من المدينة، الأول اسم القديس (جورج) والثاني اسم القديس (جاكومو) بينما أطلق على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة (بربرا) (٥١).

أما بالنسبة للحياة العامة داخل القلعة، فقد كانت عبارة عن طابع يجمع بين الناحية الدينية والعسكرية، فقد حرص حاكم المدينة على ضمان قسم الولاء له وللمنظمة من قبل جميع الضباط والجنود العاملين داخلها، والتأكد من تأدية مراسم العبادة في كنيسة القلعة، والتشديد في الحراسة الليلية على الأسوار، والنهارية على الأبواب، وعدم السماح بدخول الأتراك والعرب واليهود إلى القلعة إلا من كانت لهم أمور هامة، فيسمح لهم بالدخول نهاراً على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم خارج القلعة (٥٢).

ويتضح من ذلك أن القلعة كانت تعيش في حالة استنفار مستمرة، وحياة مضطربة خوفاً من تعرضهم لهجوم مفاجئ من قبل الطرابلسيين أو الأتراك.

بدأ جنود العدو تحركاتهم العسكرية البرية والبحرية، حيث لاحقوا الأهالي بالقتل والتشريد بقصد تخويفهم وتهجيرهم من مدينة طرابلس، لم يستطع السكان تحمل تلك الممارسات الوحشية، فقرروا التوجه إلى مدينة تاجوراء واتخاذها قاعدة لهم لتنظيم أنفسهم والإعداد لمقاومة العدو الجديد واسترجاع طرابلس من سيطرتهم (٥٣).

لقد كان أول هجوم يشنه الأهالي من تاجوراء ضد قوات فرسان القديس يوحنا في طرابلس سنة ١٥٣١م كان بمساعدة (خير الدين بربروسا) حيث ألحقوا بقوات الفرسان خسائر كبيرة، كما أنهم استطاعوا القضاء على أنصار الأمير حسن أمير تونس. ثم ترك خير الدين أحد قادته وهو خير الدين كرمان في تاجوراء لتولي شؤون البلاد ولمهاجمة قوات العدو في طرابلس، وأمده ببعض الإمدادات العسكرية ونصبه حاكماً على تاجوراء بموافقة الأهالي في ١٧ آب ١٥٣١م (٥٤).

وبسبب تلك التطورات، أصبح العدو في موقف صعب، حيث كانوا يتوقعون مهاجمتهم في أي وقت، وخاصة بعد أن استولى خير الدين بربروسا على تونس ١٥٣٤م، وبذلك يكون الأسطول العثماني قد أصبح على مسافة قريبة منهم، وبناء على ذلك فقد طلب حاكم مدينة طرابلس من فرسانه الاستعداد التام وأطلعهم على حقيقة الأمر وأبلغهم بأنه لا يمكن الاحتفاظ بمدينة طرابلس ما دام المجاهدون بقيادة خير الدين كرمان يسيطرون على تاجوراء، ومن أجل ذلك فقد جهزت المنظمة حملة بحرية مكونة من أربع سفن تحمل أربعمائة جندي وخمسين فارساً، بدعم من البابا الذي دعم وبارك هذه الحملة (٥٥).

وتشير وثائق الأرشيف المالطي إلى أن مدينة روما هي المحرك الأساسي وقلب العالم المسيحي وهي دائماً تبارك وتؤيد كل الحملات التي يقوم بها أسطول المنظمة سـواء في البحر أو البر (٥٦).

ورغم وصول تلك الحملة مدينة طرابلس إلاّ أنّها فشلت في تنفيذ مخططها مما جعلهم يدركون أن بقائهم في طرابلس أصبح عبئاً ثقيلاً كلفهم الكثير من الرجال والمال، كما أدركوا حقيقة صعبة وهي أن تنازل الإمبراطور الأسباني عن مدينة طرابلس لهم لـم يكن بدافع ديني ولا شفقة عليهم، وإنما هدية مسممة قدمت إليهم للتخاص من مشاكلها، وعليه فقد قرروا إعادتها إلى الإمبراطور الأسباني وإذا ما رفـض ذلـك، فعليـه أن يتحمل مهمة الدفاع عنها وأن يبني على نفقته تحصينات قوية وقلاعاً وأسواراً وخنادق تكون قادرة على الصمود ومقاومة أي حصار أو هجوم قد يتعرضون له (٥٧).

ونظراً للعوامل المتردية التي واجهت فرسان مالطا – وخاصة بعد وفاة المرشد الأكبر (لسلى آدم Lise Adem) – حيث أصبح موقفهم صعباً وخاصة بعد سيطرة خير الـدين بربروس على تونس ١٥٣٤م، فاستنجدوا بالبابا طالبين مـساعدته، فخاطـب البابـا الإمبراطور الأسباني وحثه على ضرورة استرداد تـونس، موضـحاً لـه أهميتهـا الإستراتيجية، ويرى بعض المؤرخين أن حملة الإمبراطور الأسباني على تونس سنة ١٥٣٤م واستعادتها من خير الدين بربروس، كانـت إرضـاء للبابـا أولاً، وللعـالم المسيحي ثانياً، وتقوية ودعم موقف فرسان مالطا في طرابلس ثالثاً (٥٨).

أدرك الأسبان والعالم المسيحي أن منـاطق المغـرب العربـي لـن تكـون تابعـة للإمبراطورية الأسبانية إلا بطرد العثمانيين والتابعين لهم، ومن أجل تحقيق ذلك قـام الأسبان بإعداد حملة عسكرية لاحتلال الجزائر سنة ١٥٤١م، وتحريرها من الوجـود العثماني، إلاّ أن تلك الحملة قد باءت بالفشل الذريع حيث هزموا شر هزيمة وخابـت كل آمالهم، وكان من نتائجها أن اكتسبت الجزائر خاصة ومناطق المغـرب العربـي

عامة قوة وشهرة عظيمة، قد زادت من خوف وقلق فرسان مالطا، حيث أدركـوا أن طردهم من طرابلس بات قريباً، مع العلم أن تلك الحملة المسيحية تعتبر مـن أكبـر الحملات العسكرية ضد مناطق المغرب العربي في القرن السادس عشر [٥٩].

ومع ذلك كله فقـد بقيت الأمور على ما هـو عليه، حيث حاصر (خير الدين كرمان) مدينة طرابلس بقوة كبيرة وبدأ بمهاجمتها، مما ضاعف من خطورة الموقف بالنـسبة لفرسان القديس يوحنا، وباتـوا مهددين بالأسر أو القتل، إلاّ أن استشهاد خير الـدين كرمان في ذلك الهجوم قد أعطى لهم باب الأمل مـن جديد، ولكـن ذلك الأمل لم يدم طويلاً، حيث وصل (مراد آغا*) وتولى القيادة من بعد خير الدين كرمان في تاجوراء كزعيم وقائد للثوار، ويسميه كتاب العصر Morataga – Muradaga [٦٠].

خامساً – الاستنجاد بالدولة العثمانية:

إذا كان على فرسان القديس يوحنا خلال العشر سنوات الأولى من سـيطرتهم علـى مدينة طرابلس، أن يحتاطوا لهجمات الأهالي من تاجوراء، فقد كان عليهم أن يستعدوا أكثر لملاقاة القائد الجديد (مراد آغا) أحد التلاميذ المخلصين لخير الـدين برباروسـا [٦١].

وصل مراد آغا إلى مدينة تاجوراء عقب استشهاد خير الدين كرمان، حيـث أصـبح مركز المقاومة ضعيفاً ولم يكن لدى المجاهدين قوة كافية لمقاومة قـوات العـدو؛ لأن إمكانياتهم العسكرية والبشرية ومواردهم المالية كانت قليلة وضعيفة[٦٢]، فأدركوا أنهم لا قدرة لهم على مقاومة فرسان العدو إلا بالاستعانة بالدولة العثمانية، والتـي حققـت أثناء حكم السلطان سليمان القانوني الازدياد في القوة والتصاعد في النفوذ والاتـساع في المساحة في كل من أوروبا وآسيا وإفريقيا[٦٣]، ولها مـن الإمكانيـات العـسكرية والبشرية ما يخلصهم من قوات عدوهم، ويهمها من أمر الإسلام والمسلمين ما يهم كل مسلم حريص على عقيدته ودينه[٦٤]، فشكلوا وفداً وكلفوه بالتوجه إلى استانبول لطلب

المساعدة، وبمجرد وصول الوفد استقبله السلطان العثماني واستمع لهم وشرحوا له الوضع المتأزم في البلاد بوساطة مراد آغا الذي كان يتكلم اللغة العربية، فأحسن السلطان استقبالهم ووعدهم بتحرير بلادهم من القوات الصليبية، وريثما ينتهي السلطان من حروبه في الجبهة الشرقية، فقد كلف مراد آغا بالسفر معهم إلى طرابلس في قوة صغيرة من الجيش وطلب منه مناوشة العدو حتى وصول الأسطول العثماني إليهم، إلاّ إنه لم يتمكن من تحرير مدينة طرابلس فاستقر في تاجوراء واعترف به الأهالي قائداً عليهم (٦٥).

وما أن استلم مراد آغا القيادة حتى اهتم بتحصين دفاعات مدينة تاجوراء، والتي أصبحت تشكل خطورة كبيرة على قوات العدو في مدينة طرابلس، بسبب قربها منها وتمركز المقاومة بها، ولها ميناء صغير يتسع لاستقبال عدد كبير من السفن، وسور متين يحميها من أي هجمات محتملة، وقد نجح مراد آغا في جعلها حصناً قوياً يراقب من خلاله تحركات فرسان مالطا في مدينة طرابلس (٦٦).

حاول مراد آغا محاصرة مدينة طرابلس واسترجاعها إلاّ أنه لم يتمكن من ذلك لقلة جيشه، فطلب من السلطان العثماني إرسال قوة بحرية وبرية لتعزيز قواته لإنهاء السيطرة المسيحية على مدينة طرابلس (٦٧).

كانت البحرية العثمانية في ذلك الوقت تجوب البحر المتوسط، وتلقي الخوف والرعب في قلوب المسيحيين وتهدد أساطيلهم، بقياد سنان باشا ومساعده طرغوت باشا؛ إذ كان اهتمام البحرية العثمانية موجهاً للقضاء على قوة فرسان القديس يوحنا بمالطا لمنافستهم للبحرية العثمانية.(٦٨)

حاول فرسان مالطا مد نفوذهم خارج مدينة طرابلس، ليخرجوا من الخناق والحصار الذي هم فيه، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب تصدي مراد آغا لهم وشل تحركاتهم،

عندئذ أدركوا أنه ليس بإمكانهم الحفاظ والاستمرار في طرابلس أمام الضغط الشعبي المدعوم بالأسطول العثماني.

وعلى هذا الأساس فقد قرر المرشد الأكبر للمنظمة بأن يرسل مبعوثاً إلى البابا في الثامن من كانون الثاني سنة ١٥٤٦م، ليشرح له الأوضاع التي تمر بها قواته في طرابلس وطلب منه المساعدة، كما زود المبعوث بتعليمات هامة لإبلاغها إلى البابا كان أهمها: تدعيم القلعة وتزويدها بالجنود وكافة الإمكانيات اللازمة للدفاع عنها، وذلك بسبب المعلومات التي توفرت لديهم حول الاتفاق الذي تم ما بين (بربروساء وطرغوت) وأهالي تاجوراء، من أجل إعداد قوة حربية للاستيلاء على القلعة، وإذا ما حدث ذلك فسوف تكون خسارة كبيرة ليس لمملكة صقلية فقط وإنما للمسيحية عامة، وستكون وكراً للقراصنة الذين ستمتلئ بهم منطقة المغرب العربي، وذلك نظراً إلى أن إمكانات المنظمة ليست كافية ولا صالحة لمواجهة هذه الأخطار، واستناداً إلى ما كتب إليكم من طرفنا من تقارير وتعليمات، فنرجو منكم العمل على جمع أربعة آلاف أو خمسة آلاف جندي وإرسالها إلينا حتى تتمكن المنظمة من هزيمة وطرد مراد آغا، وهو أمر لا يمكن إتمامه إلا بتأييد ومساندة ودعم من قداسة البابا (٦٩).

لقد أوضحت تلك التعليمات مدى خضوع المنظمة للبابا وأنهم على استعداد لأي عمل يطلب منهم ضد الإسلام والمسلمين سواء إن كان ذلك العمل في البحر أو البر.

أصبح الوضع في مدينة طرابلس أكثر إحراجاً وصعوبة من ذي قبل، وذلك بسبب تولي طرغوت* باشا قيادة الأسطول العثماني في البحر المتوسط عقب وفاة خير الدين بربروس في تموز ١٥٤٦م، حيث أدرك فرسان مالطا وأعوانهم أنهم لا يستطيعون الصمود أمام هذا القائد القوي، والذي أصبح وجوده في البحر المتوسط يخيف الكثير من المسيحيين وقد سجل نجاحاً كبيراً في عملياته البحرية والبرية على السواء، حتى أن أتباعه من المسلمين كانوا يلقبونه بسيف الإسلام (٧٠).

وفي فترة وجيزة من توليه القيادة استطاع أن يغزو كل سواحل نابلي، كما أنه تمكن من الاستيلاء على مركب إيطالي كبير محمل بالبضائع قرب مدينة طرابلس، ويبدو أنه كان متجهاً إلى قوات فرسان العدو، كما حرر كلاً من سوسة*، والمنستير*، وصفاقس*، من السيطرة الأسبانية.

وحقيقة الأمر أن طرغوت باشا كان خير عونٍ بالنسبة لسواحل المغرب العربي، وتصديه للقراصنة المسيحيين الذين يشكلون خطورة كبيرة على سلامة الأسطول العثماني.

بعد أن سقطت مدن سوسة والمنستير وصفاقس في يد طرغوت باشا، رأى الملك الأسباني شارل الخامس أنه قد أهين وأن قواته قد لاقت هزيمة كبيرة، فأراد أن ينتقم منه وأن يحد من تحركاته، فوجه إليه حملة بحرية سنة ١٥٤٩م تحت قيادة (أندري دوريا Andrea Doria) القائد العام للأسطول الأسباني، إلا أن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح ولم تحقق الهدف المطلوب منها، وكان مصيرها الفشل، حيث تمكن طرغوت من التصدي لها بل وحرر مدينة المهدية*، من الاحتلال الأسباني سنة ١٥٥٠م.

وبذلك يكون طرغوت باشا قد أصبح يشكل خطراً حقيقاً لمستقبل أسبانيا ليس في إفريقيا فقط وإنما في أوروبا كلها، هنا أدرك شارل الخامس مدى الخطورة التي يمكن أن تلحق بهم إذا لم يسارعوا إلى محاصرته وطرده نهائياً من منطقة المغرب العربي، فاستدعى قائد الأسطول مرة ثانية وجهز له حملة كبيرة أبحرت من نابولي في آذار ١٥٥١م، ورغم ذلك كله إلا أن الحملة كان مصيرها الفشل والهزيمة، حيث استطاع طرغوت باشا أسر عددٍ كبيرٍ من جنودها وأوقع بالأسطول الأسباني هزيمة كبيرة [٧١].

كما استولى على كافة الإمدادات القادمة من صقلية لدعم تلك الحملة، وكانت الكارثة أكبر وأفدح للأسبانيين عندما تمكن طرغوت باشا من الاستيلاء على سفينة القيادة وألحق الضرر الكبير ببقية السفن [٧٢].

وعلى إثر ذلك بدأ التعاون والتنسيق ما بين طرغوت باشا وقائد الأسطول العثماني سنان باشا، من أجل إعداد العدة لحصار مدينة طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا منها.

هذا ولقد ساهم طرغوت باشا بدور كبير في إقناع السلطان العثماني بالإسراع في تجهيز الأسطول العثماني وإرساله إلى طرابلس، بينما سافر شخصياً إلى استانبول وأكد للسلطان صحة المعلومات المقدمة من قبل مراد آغا والتي تحث على ضرورة الإسراع بإرسال الأسطول؛ لأن فرسان مالطا يسرفون في القتل والتشريد، ولأن المساعدات الأسبانية مستمرة إليهم، وقدم له شرحاً وافياً عما يفعله المسيحيون بحق مسلمي المغرب العربي، كما أوضح له أهمية تلك المنطقة وما تتمتع به من أهمية عسكرية واقتصادية وأن السيطرة عليها تمكنه من القضاء على أعدائه الأسبان وتحقق له الإمبراطورية الواسعة والمجد الكبير.

وعليه فقد قام السلطان العثماني بتكليف سنان باشا بتجهيز وإعداد الأسطول العثماني والتوجه إلى طرابلس الغرب لتحريرها من خطر فرسان القديس يوحنا، وتحرير وهران وبجاية وتونس من أيدي المسيحيين وضمها إلى الدولة العثمانية، وعلى الفور جهز سنان باشا أسطولاً ضخماً مكوناً من ١١٢ سفينة و٥٢ مركباً ما بين صغير وكبير وأخذ معه ٨٠٠٠ جندي إنكشاري و٤٠٠ محارب وصانع و٦٠٠ فارس بخيولهم، مع كميات كبيرة من المؤن والعتاد، وما إن علم فرسان مالطا بذلك حتى أصابهم الخوف والذعر وطالبوا نائب الملك في صقلية بإمدادهم بالجنود والمؤن والعتاد لمواجهة الخطر العثماني [٧٣].

تجمع الأسطول العثماني شرق البحر المتوسط، وظهر أمام سواحل مالطا يوم ٨ تموز سنة ١٥٥١م بغرض السيطرة عليها وتخريبها، إلاّ أن القائد سنان باشا وعندما رأى قوة حصونها وضخامة أسوارها، وأنه ليس من السهل محاصرتها واحتلالها، وستكلفه

الوقت والجهد، فقرر تركها والسفر إلى طرابلس بحجة تحريرها أولاً من خطر فرسان مالطا [٧٤].

ثم أبحر بعد ذلك إلى طرابلس حيث وصلها في الخامس مـن آب ١٥٥١م واتخـذت السفن أماكنها أمام المدينة استعداداً للهجوم، اتجه سنان باشا إلى مدينة تاجوراء حيـث يقيم مراد آغا، وحاصر مدينة طرابلس براً وبحراً، ثُم أرسل مبعوثاً إلى حـاكم المدينـة يطلب منه تسليمها والخروج منها قائلاً له: ((إذا أبيتم فليس أمامنا إلا القليل)) فرفض هذا الطلب[٧٥]، عندئذ استعدت القوات العثمانية للهجوم على المدينة وأثناء ذلك قَـدِم الـسفير الفرنسي (السنيور دارمونت Darmont) إلى تاجوراء وهو في طريقه إلى استانبول، وقد حاول إقناع سنان باشا بالعدول عن خطته، إلاّ أنه اعتذر للسفير الفرنسي وأوضح لـه أنه مأمور من قبل السلطان لاسترداد مدينة طرابلس[٧٦]، وأكد له أن السلطان العثماني قد قرر تصفية الوجود المسيحي في هذه المدينة حتى لو كانت الدولة العثمانية معترفة بحق فرنسا بحماية المسيحية في الشرق [٧٧].

وعندما أدرك السفير الفرنسي أنه لا جدوى من ذلك صمم على الذهاب إلى الأسـتانة للحصول على ما لم يحصل عليه من سنان باشا، إلاّ أنه لم ينجح في ذلك لأن سـنان باشا لم يأذن له بالسفر إلا بعد تحرير مدينة طرابلس من فرسان القديس يوحنا [٧٨].

وعندما اتضح لسنان باشا مماطلة فرسان مالطا وعدم استجابتهم لطلبه، أصدر أوامـر لقواته بالهجوم على المدينة يوم التاسع من آب سنة ١٥٥١م، في الوقت نفسه حـاول بعض من قوات فرسان مالطا الهروب من القلعة بسبب نقص المياه وقـرب القـوات العثمانية، وفي الثالث عشر من نفس الشهر اقتحم أربعة آلاف جندي عثماني أسـوار القلعة، إلا أنهم فشلوا في ذلك نتيجة لمنعتها وحصانتها [٧٩].

غير أن ذلك الهجوم قد حقّق نتيجة هامة، حيث أرعب جنود الفرسان وغدوا يبحثـون عن وسيلة تمكنهم من الهروب خارج المدينة، وما أن علم جاسباري دي فاليير قائـد

الفرسان بهم حتى حاول إقناعهم بالعدول عن فكرة الهروب لأن ذلك منافٍ للشرف العسكري، لكنه لم ينجح ووجد نفسه وحيداً بعد أن تخلى عنه جنوده، فاضطر إلى الاستسلام، والدخول في مفاوضات مع سنان باشا، فعرض عليه تخلي قوات الفرسان عن مدينة طرابلس مقابل المحافظة على أفراد الحامية، وأن يتعهد بنقلهم سالمين إلى مالطا أو صقلية [٨٠].

وتشير بعض وثائق أرشيف مالطا عن حقيقة تلك المفاوضات جاء فيها: ((ودامت المفاوضات بيننا وبين العثمانيين على جانب كبير من الأهمية، حيث إن حكومة طرابلس تراقب مجريات هذه المفاوضات بنوع من التفاؤل والأمل، وقد كان العثمانيون مسرورين بعد هذه المفاوضات، إذ أنه تم الاتفاق على خروج من في القلعة بطرابلس من الفرسان في تاريخ محدد والانسحاب منها والذهاب إلى مالطا))[٨١].

وبهذه المناسبة أقيم احتفال كبير في السادس عشر من آب سنة ١٥٥١م، حضره السفير الفرنسي وحاكم مدينة طرابلس، ثم أذن سنان باشا لفرسان القديس يوحنا بالرحيل على ظهر سفينة تحمل العلم الفرنسي في الثامن عشر من آب سنة ١٥٥١م، ولم تستغرق عملية تحرير طرابلس أكثر من عشرة أيام، ثم أبحر الأسطول العثماني متجهاً إلى الأستانة بعد أن حقّق هذا النصر الكبير وبعد أن عهد سنان باشا بولاية طرابلس إلى مراد آغا، وبذلك يكون الحكم العثماني لمدينة طرابلس قد بدأ ويكون مراد آغا أول شخصية عثمانية تباشر الحكم في المقاطعة الجديدة سنة ١٥٥١م، غير أن طرغوت باشا والذي كان يطمح في توليه مدينة طرابلس انزعج لذلك حيث قطع مرساة مركبه ووجه شراعه نحو المغرب وتبعه قادة المراكب الأخرى تاركين سنان باشا لوحده، إلاّ أن طرغوت باشا لم يرض بذلك وأمرهم بالعودة، إلاّ أنهم أصروا على أن يعود معهم فقبل ذلك خدمة للدولة [٨٢].

ونظراً لمكانة طرغوت باشا في حركة الجهاد البحري فقد كافأه السلطان برتبة (أمير أمراء الجزائر) مع إمارة البحر (وزير البحرية) اعترافاً له بخدماته وجهوده القيمة، ولكن رستم باشا الذي كان يشغل منصب الصدر الأعظم قد أبعده عن ذلك المنصب نظراً للعداء الشديد الذي كان بينهما [٨٣].

ويظهر أن طرغوت باشا قد نجح أخيراً في الحصول على إمارة طرابلس سنة ١٥٥٦م، حيث بذل جهوداً كبيرة في تثبيت الحكم العثماني في الولاية الجديدة بما فيها فزان وبرقة حيث أصبحت تدفع الضرائب لمدينة طرابلس في عهده [٨٤].

الخلاصة:

وهكذا بدءاً من آب ١٥٥١م، أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية[٨٥]، ومنذ ذلك التاريخ عمد العثمانيون إلى تطبيق الإجراءات الإدارية والعسكرية، على أساس أنّها ولاية جديدة من ولايات الإمبراطورية العثمانية في منطقة المغرب العربي (شمال إفريقيا).

وقد صدمت أوروبا بسقوط مدينة طرابلس باعتبارها قاعدة أمامية لهم، ورغم محاولاتهم المستمرة إلا أن مدينة طرابلس لم تقع تحت سيطرة الأوروبيين مدة ثلاثمائة وستين سنة منذ استيلاء الدولة العثمانية عليها [٨٦].

الهوامش

(١) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢) رحلة التجاني (قام بها في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي منذ سنة ١٣٠٦هـ إلى سنة ١٣٠٨هـ) تحقيق: ولم مرسي، قدم لها حسن حسي عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨١م، ص٢٤٠.

(٣) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، المرجع السابق، ص١٧١-١٧٢.

* مدينة تاجوراء: إحدى الضواحي القريبة من مدينة طرابلس، حيث تقع إلى الشرق منها بمسافة ٣٠ كيلومتر، وهي التي أصبحت مركز المقاومة ضد الأسبان في مدينة طرابلس، وكان عروج وخير الدين باربار وس على اتصال مستمر بها . روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص١٧٤-١٧٦.

* غات: واحة من واحات ليبيا الصحراوية، تقع في الجنوب الغربي من فزان، على مسافة ٤٣٠كم، وفي الجنوب الغربي من مدينة طرابلس بنحو ١١٤٣كم، ومن مدينة غدامس إلى الجنوب بنحو ٦٢٠كم، وأهم القرى التابعة لها تونين والبركة والعوينات، وتقع مدينة غات وسط أرض غنية بالماء مكسوة بالنباتات، وهي مركز مهم للمواصلات عبر الصحراء الكبرى، جعلها ذات نفوذ في قلب الصحراء الكبرى، ولم يحدد المؤرخون سنة تأسيسها، وأول من ذكر غات من الرحالة المسلمين هو ابن بطوطة في رحلته في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي – الثامن الهجري، وسكانها من التوارق وهم من البربر ويتكلمون اللغة البربرية، وبعضهم يعرف اللغة العربية، ويستعملون اللثام على وجوههم فلا

ترى منهم إلا عيونهم، وفيها بعض البساتين ونخلها ليس كثيراً ويشرب سكانها ويسقون مزروعاتهم من آبار عمقها قليل وماؤها غزير . **رحلة ابن بطوطة،** المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، الطبعة الأولى، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص٧٠٦، الزاوي، معجم البلدان الليبية، مرجع سابق، ص٢٣٨-٢٤٠.

* مرزق: عاصمة بلاد فزان في العهد العثماني، تقع جنوب غرب مدينة سبها بنحو ١٤٥كم، وتقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس بنحو ٧٧٥كم . المرجع السابق نفسه، ص٣١٠.

(٥) ن.أ.بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث،** ط، ترجمة وتحقيق: عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ١٩٩١م، ص٤٣.

(٦) روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا،** مرجع سابق، ص٣٧.

(٧) روسي، **ليبيا منذ الفتح حتى سنة ١٩١١م،** مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١، برنيا، مرجع سابق، ص٣٢-٣٣.

(٨) نص المنشور في كتاب: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا،** مرجع سابق، ص٣٧.

(٩) إسماعيل، مرجع سابق، ص١٩.

(١٠) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(١١) روسي، **طرابلس تحت الحكم الأسباني وفرسان مالطا،** المرجع السابق، ص٣١، الزاوي، مرجع سابق، ص٢٨٧، الباروني، مرجع سابق، ص٥٩.

(١٢) برنيا، مرجع سابق، ص٣٤.

(١٣) روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا،** مرجع سابق، ص٣٢.

(١٤) روسي، **ليبيا منذ الفتح حتى سنة ١٩١١م،** مرجع سابق، ص١٨٣-١٨٥.

(١٥) برنيا، مرجع سابق، ص٣٠.

(١٦) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٠.
(١٧) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٠.
(١٨) رسالة قنصل البندقية في باليرمو إلى حكومته، بدون تاريخ، للمزيد: روسـي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ٣٥.
(١٩) الزاوي، المرجع السابق، ص٢٩١.
(٢٠) رسالة الملك (شارل الخامس) إلى نائبه في طرابلس بتاريخ ١٥٢٠م، للمزيـد: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجع الـسابق، ص٣٨-٣٩.
(٢١) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١١٤-١١٥، الباروني، مرجع سابق، ص٦٧.
(٢٢) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربـي حتـى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٩، الباروني، المرجع السابق، ص٦٧.
(٢٣) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، الزاوي، المرجع السابق، ص٣٧٨.
(٢٤) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١١٥، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٩، الباروني، مرجع سابق، ص٦٨.
(٢٥) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، الزاوي، مرجع سابق، ص٣٧٨
(٢٦) Guidil Giacomo: Llirestauro del castello di Tripoli cacoparo editore in Triboli, ١٩٣٥ ١٩٣٥. P.١١.
(٢٧) رغم أن الخندق قد تم ردمه الآن، إلاّ أن آثاره ما تزال واضحة، وهو يـستعمل ممراً يفضي إلى باب يؤدي إلى الساحة، يسمى باب الخنـدق . للمزيـد: فيـرو، مرجع سابق، ص٧٦.
(٢٨) إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٠.
(٢٩) كواندرو، مرجع سابق، ص١٧.

(٣٠) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا** (١٤٩٢-١٧٩٢) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، د.ت، ص٧٥.

* الموريسكيين: لفظ يطلق على العرب المتنصرين.

* الفورنو: إحدى المدن الإيطالية وميناء هام على ساحل البحر المتوسط بتوسكانا، إحدى الدويلات الإيطالية قبل الوحدة ١٨٧٠م، كانت ترتبط بعلاقات تجارية واسعة مع ولايات المغرب العربي.

(٣١) Moulay belhamissi histoire de la marine Algerienne. ١٥١٦-١٨٣٠. Entreprise nationale du liver Alger ١٩٨٦. p٢١.

(٣٢) كواندرو، مرجع سابق، ص٢٣.

(٣٣) البارون الفونصو روسو، **الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر**، تعريب وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط٢، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٢م، مقدمة التحقيق، ص٣٩.

(٣٤) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١٤٣.

(٣٥) روسو، المرجع السابق، ص٣٩.

(٣٦) عرف عروج باسم بربروس وتعني صاحب اللحية الحمراء ويبدوا أن الاسم قد عرف به أفراد الأسرة بالكامل حتى أصبحت تعرف بأسرة بربروساء.

(٣٧) المدني، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٣٨) يحيى عزيز، **علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا** (١٥٠٠م-١٨٥٠م) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، د.ت، ص٣٤.

(٣٩) المدني، المرجع السابق، ص١٧٢.

(٤٠) المرجع السابق نفسه، ص١٩٢.

* بكلربك: كلمة تركية تعني أمير الأمراء.

(٤١) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية،** تعريـب: نبيـه فـارس ومنيـر البعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٥٣.

(٤٢) عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تعريب: عبدالسلام أدهم الفرجاني، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م، ص٣٣.

(٤٣) كواندرو، مرجع السابق، ص١٧.

* مرسيليا: مدينة وميناء تجاري فرنسي مهم على ساجل المتوسط ولهـا علاقـات تجارية واسعة مع ولايات المغرب العربي.

(٤٤) كواندرو، المرجع السابق، ص١٨.

* من المعروف أن هذه المنظمة كانت قبل قدومها إلى طرابلس عبارة عن جماعـة دينية نذروا أنفسهم للخدمة الدينية والجهاد في سبيل المسيحية ورعاية المحتـاجين من فقراء المسيحيين ومساعدة حجاج بيت المقدس واتخذت مقراً لهـا فـي بيـت المقدس وفي زمن الحروب الصليبية تحولت هذه المنظمـة إلـى هيئـة حربيـة لمساعدة الجرحى ومنكوبي الحرب وأظهروا عداءهم للإسـلام والمـسلمين وقـد وضعت هذه الجماعة تحت رعاية القديس (جيوفاني باتيستا) وأطلق على أعضائها اسم الاسبتارية نسبة إلى أعمال الاستشفاء التـي يقـدمونها كمـا عرفـوا باسـم (اليوجنين) نسبة إلى (القديس يوحنا) ومع أن القيام على شؤون المستشفيات ظـل هو الطابع الغالب على نشاطهم غير أنه كان للفرسان مهام عسكرية حيث ساهموا في محاربة المسلمين في الأراضي المقدسة، وعندما طرد صلاح الدين الأيـوبي الصليبيين من بيت المقدس ١١٨٧م لجأ هؤلاء إلى مدينة عكا واسـتمروا هنـاك يساعدون الصليبيين في حروبهم ضد المسلمين إلى أن سقطت عكـا فـي أيـدي المسلمين عندئذ اتجهوا إلى جزيرة رودس ومن هذه الجزيرة أخذوا يطالبون ملوك أوروبا بحمايتهم، كما ضموا إليهم بعض الجزر المجاورة لهم وقد شـملهم البابـا بعطفه نظراً لكراهيتهم للإسلام والمسلمين ومن رودس أصـبحوا يعملـون ضـد

المسلمين عن طريق القرصنة وعرقلة حركة الأسطول العثماني ونتيجة لهذه الأعمال العدوانية أرسلت الدولة العثمانية عدة حملات للقضاء عليهم وكانت آخر تلك الحملات الحملة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني ١٥٢٢م ودام حصارها للجزيرة ستة أشهر حتى أجبروا على تسليمها في ١ يناير ١٥٢٣م بشرط أن يسمح لهم بالجلاء عنها ونقل كافة ما يملكونه، وخرج هؤلاء وقلوبهم تغلي حقداً وكراهية على جميع المسلمين، باحثين عن مكان يضمن لهم مزاولة نشاطهم القرصني، وبعد مدة من البحث استقر بهم المقام في روما بدعوة من البابا (كلمنت السابع) وأقاموا في (شينفافكيا) وتم تعيين مركز دير المنظمة في (فيتيربو) التي تنازل عنها البابا للمنظمة، ولكن نظراً لعدم صلاحية هذا المكان رأوا أنهم لا يستطيعون مزاولة نشاطهم القرصني ضد الأسطول العثماني لاسترداد جزيرة رودس أو أي جزيرة من جزر البحر المتوسط، ولكن بعد كثير من البحث والدراسة طالبوا بمنحهم جزيرتي مالطا وقوزو باعتبارهما أحسن مكان في ذلك الوقت لمواصلة كفاحهم العدواني فاستجاب لهم (شارل الخامس) بشرط الدفاع عن طرابلس والاستقرار بها، فقبلوا بها .: بريان بلوية، قصة مالطا، تعريب: مصطفى جودة، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٩م، ص٤٦ وما بعدها، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٩-١٩٣، روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٤٩-٥٤، بازامه، مرجع سابق، ص١٠٢، ١٠٣، الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩١-٢٩٣.

(٤٥) بازامه، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٤٦) بازامه، مرجع سابق، ص١٠٤.

(٤٧) انظر التقرير في كل من: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع السابق، ص٥٠-٥١، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**،

مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١، بازامه، المرجع سابق، ص١٠٥-١١١، التليـسي، مرجع سابق، ص٦٨.

(٤٨) انظر نص هذا المرسوم في كل من: روسي، طرابلس تحـت حكـم الأسـبان وفرسان مالطا، مرجع سابق، ص٥٢-٥٣، الباروني، مرجـع سـابق، ص٨٦، إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٠، روسي، **ليبيا منذ الفـتح العربـي حتـى سـنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٩٢.

(٤٩) الباروني، المرجع السابق، ص٩٠.

(٥٠) المرجع السابق نفسه، ص٩٠.

(٥١) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجـع سـابق، ص١٩٦، روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، مرجع سابق، ص٦٠.

(٥٢) التليسي، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩.

(٥٣) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، المرجع السابق، ص١٩٦، روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجـع الـسابق، ص٦١، التليسي، المرجع السابق، ص٦٨.

(٥٤) من أرشيف مالطا (Archive) مالطـا، كتـاب (Bulirum) الفقــرة ٤١٥، ١٥٣١-١٥٣٤م، المسجلة تحت رقم ٢١٥ حرف V، للمزيد: روسي، **طـرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجع السابق، ص٩٧.

(٥٥) برينا، مرجع سابق، ص٤٠.

(٥٦) من أرشيف مالطا، الفقرة، ٤١٥، ١٥٣١-١٥٣٤م، حـرف F ٢٢١، للمزيـد: روسي، **طرابلس تحت الحكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٩٨.

(٥٧) فيرو، مرجع سابق، ص٩٢-٩٣.

(٥٨) عامر، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٥٩) محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، دمشق، سوريا، ١٩٨١م، ص١١٩.

* مراد آغا: علج من أصل أوروبي من مدينة (راجـوزا RAGUSA) اختطفـه القراصنة منذ صباه ونقل إلى الآستانة وآل مصيره إلى بلاط السلطان سليم الأول وكان جميلاً وسيماً، وقد عشقته محظية السلطان وأحبت أن يكون قريباً منها، ولما كان من المحرم إدخال الرجال على الحريم السلطاني أجريت له عملية إخـصاء، وبعد موت سيدته آلت إليه ثروة طائلة وأصـبح حـراً فانـصرف إلـى العمـل العسكري، وتميز بالشجاعة، وتعلم اللغة العربية وعمل فـي البحـر علـى مـتن الأسطول العثماني وترقى فيه، وعندما وضع السلطان سليم الأول أسطولاً عثمانياً تحت قيادة خير الدين بربروسا في غرب البحر المتوسط ضم خير الدين مـراد آغا إلـى رجاله وهو الذي عينه حاكماً على تاجوراء بعد وفاة القائد خير الـدين كرمان فيها برينا، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٦، ابـن غلبـون، مـصدر سـابق، ص١٣٧، فيرو، مرجع سابق ، ص ١١٧.

(٦٠) روسي، **طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٣.

(٦١) برنيا، المرجع السابق، ص٤١.

(٦٢) عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ط١، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٢، ص٩٢٩.

(٦٣) الشناوي، مرجع سابق، ص٩٢٩.

(٦٤) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٦٥) النائب، مصدر سابق، ص١٩٩، ابن غلبون، مصدر سابق، ص٩٣، روسـي، **طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٣.

(٦٦) برنيا، مرجع سابق، ص٤٢.

(٦٧) الشناوي، المرجع السابق، ص٩٢٩.

(٦٨) مصطفى عبد ا بعيو، **المجمل في تـاريخ لوبيـا**، ط١، القـاهرة، ١٩٤٧م، ص٧٩.

(٦٩) انظر نص تلك التعليمات في كتاب: روسي، **طـرابلس تحـت حكـم الأسـبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٦-٦٨.

* طرغوث باشا: ولد سنة ١٤٨٥م، في بلاد الأناضول التي تقع بآسيا، وهـو ابـن لوالدين فقيرين في قرية تسمى "قرابالا"، ظهرت عليه ملامـح الفطانـة والـذكاء الخارق منذ صغره، ذهب مع والده إلى مصر ليتعلم فيها الحياة العسكرية أيام حكم المماليك، فنبغ في فن الرماية والمدفعية، وعندما اشتد ساعده اشتغل بحـاراً فـي السفن البحرية يجوب البحار حتى صار له خبرة وسمعة كبيرة، وما أن سمع بـه خير الدين بربروس حتى ضمه إلى أسطوله؛ حتى أصبح قائداً لإحـدى فـصائل السفن العثمانية، وبعد وفاة بربروس أصبح طرغوت باشا سـيد البحـر، يخيـف الكثير من الأوربيين في البحر المتوسط، وسجل نجاحاً عظيماً في عملياته البحرية والبرية، حتى إن أتباعه المسلمون كانوا يلقبونه بسيف الإسلام، وإلى جانـب أنـه عسكرياً ماهراً، فهو ذو أخلاق عالية، وله معرفة بالجزر والطرق البحرية كربان ماهر . برنيا، مرجع سابق، ص٣٧-٣٨، روسي، **طرابلس تحت حكـم الإسـبان وفرسان مالطا**، المرجع السابق، ص٦٨-٦٩، روسي، **ليبيا منذ الفـتح العربـي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٧٠) Brand Ford Ernel the great "siege. P.G ٩٠. first printed ١٩٦١. London"

* سوسة: تقع جنوب العاصمة وتبعد عنها بمسافة ١٤٠ كيلو متر تقريباً، وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٥٦٠ كيلو متر تقريباً.

* المنستير: تقع جنوب تونس العاصمة وتبعد عنها بمسافة ١٦٤ كيلو متـر تقريبـاً، وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٥٤٠ كيلو متر تقريباً.

* صفاقس: تقع جنوب تونس العاصمة على الساحل الشرقي وتبعد عنها بمسافة ٢٧٠ كيلو متر تقريباً وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٤٣٠ كيلـو متـر تقريباً.
* المهدية: تقع جنوب تونس العاصمة وتبعد عنها بمسافة ٢٠٠ كيلو متر تقريباً وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها ٤٧٠ كيلو متر تقريباً.

(٧١) Brand Ford Ernel. Op. cit. p. ٩١.

(٧٢) برنيا، مرجع سابق، ص٤٨، روسي، **طرابلس تحت حكم الأسـبان وفرسـان مالطا**، مرجع سابق، ص٧١.

(٧٣) عامر، مرجع سابق، ص١٦١.

(٧٤) الباروني، مرجع سابق، ص١٢٦-١٢٧.

(٧٥) فيرو، مرجع سابق، ص١٠٥، برنيا، مرجع سابق، ص٣٠.

(٧٦) سامح، مرجع سابق، ص٥١، فيرو، مرجع سابق، ص١٠٧.

(٧٧) بناء على المعاهدة المعقودة بين الطرفين في يناير ١٥٣٦م والمعروفة بمعاهـدة الامتيازات . للمزيد: فريد محمد بيك، **تاريخ الدولة العثمانية**، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٧م، ص٩١-٩٥.

(٧٨) فيرو، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٧٩) عامر، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٨٠) المرجع السابق نفسه، ص١٦٢-١٦٣.

(٨١) أرشيف Archiv مالطا، كتاب Ballanom، المسجلة تحت رقم ٤٢٢ الفقـرة ٢٢٠ والفقرة ٢٢٣ حرف V مالطا، للمزيد: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.

(٨٢) حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، للمزيد: محمد الأسطى، **أوراق عن البحرية الطرابلسية**، ملف البحرية، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس.

(٨٣) فيرو، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢١.

(٨٤) سامح، مرجع سابق، ص٥٤.

(٨٥) محمود ناجي، **طرابلس الغرب**، ترجمة: عبد السلام أدهم ومحمـود الأسـطى، بنغازي، ليبيا، ١٩٧٠م، ص١٤٩.

(٨٦) جون رايت، **تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور**، ترجمة: عبد الحفيظ الميار، وأحمـد اليسازوري، ط١، بيروت، ١٩٧٢م، ص٩١.